

فيورباخ والقراءة النقدية لمفهوم الدين

Feuerbach and the critical reading of the concept of religion

بن زينب شريف *

تاريخ النشر: 2024/12/20	تاريخ القبول: 2024/11/24	تاريخ الإرسال: 2023/12/25
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

إذا كان عصر كانط عصر النقد، وعصر هيغل عصر المثالية، فإن عصر فيورباخ أو ما عرفوا بالهيجليين الشباب، عصر النقد الديني، أو القراءة الإنسانية لمفهوم الدين، القراءة الفلسفية التي أعادة الاعتبار للإنسان إنطلاقاً من الفهم العقلاني للممارسة الدينية، أو بتعبير آخر من الفهم إلى الممارسة، حيث عمل فيورباخ على إنارة تلك الزوايا المظلمة من الدين، زوايا نصب رجال الدين أنفسهم وصايا على الفهم والممارسة. الكلمات المفتاحية: الدين، الفلسفة، التدين، الإنسان، الإلحاد.

Abstract:

If the era of Kant is the era of criticism, and the age of Higl, the era of idealism, then the era of Fuarbakh or what they were known as the young Hegalians, the era of religious criticism, or the human reading of the concept of religion, the philosophical reading that rehabilitates the human being based on the rational understanding of religious practice, or in another expression of understanding to Practice, where Vioerbach worked to illuminate those dark corners of religion, the angles of the clergym monument were described on understanding and practice.

Key words: Religion, philosophy, religiosity, human, atheism.

*** **

المؤلف المرسل: بن زينب شريف، cherifbenzineb@gmail.com

* جامعة يحي فارس المدينة، cherifbenzineb@gmail.com

مقدمة:

يعتبر موضوع الإلحاد من بين أهم المواضيع الفلسفية، الضاربة بجذورها في تاريخ الفكر الفلسفي، موضوع ما فتئ يخفت مرات ويتجدد عدة، كيف لا وهو الذي يخالغ تفكير كل إنسان باحث عن الحقيقة، ولقد زاد الاشتغال بهذا الموضوع خصوصاً بعد الثورة التكنولوجية والعلمية، التي طرقت العديد من القضايا الدينية، وخلخلت اليقينيات الدينية، مما استدعى ضرورة إعادة القراءة لهذه مواضيع، خصوصاً مع تنامي النزعة الإنسانية.

إن البحث في الجذور التاريخية للإلحاد، ستصل بنا بالضرورة إلى تلك الثنائية (الله/ الإنسان) والعلاقة بينهما، علاقة قد تكون قائمة على التسليم والاعتقاد، أو الشك والنفي، لهذا نجد الفكر الإلحادي خصوصاً المعاصر، يؤكد على فكرة اقضاء الإنسان في ظل وجود المطلق، هذا الأخير الذي يفقد الإنسان هويته وكيونته، وغايته، بجعله على هامش الوجود.

يعتبر لودفيج فيورباخ¹ من بين أهم الفلاسفة المشتغلين بفكرة الدين واللاهوت، منذ أن بعث لوالده بتلك الرسالة سنة 1824 التي يقول فيها: «لقد هجرت اللاهوت لس عبثاً أو استهتاراً أو كرهاً ولكن لأنه لا يشبيني. لا يعطيني ما أحتاج إليه، ولا أستطيع الاستغناء عنه»، رسالة تعبر بجد عن شعور فيورباخ عن البحث ما بعد اللاهوت أو لنقل محاولة البحث عن الفهم الصحيح لهذا اللاهوت. فالمحاضرات التي كان يلقاها في الجامعة لم تشبع فضوله، ولا أروت ظمأه المعرفي، بل زادت غموضاً وضباباً وتشذبي بين رغبة الوالد وحاجته المعرفية الفلسفية، لهذا عمل على البحث عن المعنى الحقيقي والغاية الأسى من الدين، لذا تعتبر فلسفة فيورباخ، بمثابة قطيعة فعلية بين الفلسفة الكلاسيكية والفلسفة الحديثة.

1- جوهر المسيحية " يفضح المسيحية:

قد يكون العنوان غريباً نوعاً ما، ولكن إن قلنا أن كتاب "جوهر المسيحية" *Das Wesen des Christentums* الصادر سنة 1841، العمل الأكثر أهمية في فلسفة فيورباخ،

حيث استطاع من خلاله، تعرية المسيحية كممارسة دينية أقصت كل فهم بشري لمفهوم الدين، مع تقديم نقد فلسفي للمسيحية كتعاليم وممارسة، فالمسيحية حسب فيورباخ صناعة مخيلة القساوسة وآباء الكنيسة أكثر من العقل، لهذا هناك فرق شاسع بين المسيحية التاريخية، والمسيحية الإنسانية، مسيحية أقصت المسيح الإنسان، وأدخلت المسيح التاريخي المتخيل، لهذا كان من غير الممكن الترحيب بهذا العمل الفلسفي، حيث أثار ضجة كبيرة وسط رجال الدين خاصة و المجتمع عامة.

أثار هذا الكتاب حفيظة العديد من القساوسة ورجال الدين، الذين نصبوا أنفسهم حراساً على العقيدة، وعلى إيمان المجتمع، حيث يقول فيورباخ عن كتابه:» لقد اعترضوا على كتابي " جوهر المسيحية " بقولهم أن الإنسان كما بدأ في هذا الكتاب ليس تابعاً لشيء وبهذا أكون قد تابعت في زعمهم أولئك الذين ألهموا الإنسان من قبلي، ولكن الرأي عندي إن الكائن الذي هو شرط مسبق للإنسان إنما هو الطبيعة... إن كينونة الطبيعة هي بالنسبة لي الكينونة الأزلية التي لا أول لها إنها الكائن الأول وليس في المرتبة، هي الكائن الأول فيزيقياً وليس أخلاقياً»²، كتاب حاول من خلاله فيورباخ تعرية المسيحية من أوهامها، ومن كل اقضاء مارسته على الإنسان والطبيعة على حد سواء.

يرى فيورباخ أن الكتب المسيحية أسست للأهوت متجاهلة حقيقة الدين، تأسيساً أفقد المسيحية حقيقتها ونزع عنها روحها الحقيقية، لتصبح مجرد تعاليم أقامت تلك الحواز بين الإله والإنسان فلا يوجد بينهما (الإله/الإنسان) إلا التضاد، وكأن المسيحية أرسلت لغير الإنسان، وعليه فإن الوظيفة التي يجب الواجب القيام بها، هي كشف زيف المسيحية التي يروج لها رجال الدين، لذا يقول: «التضاد بين الإلهي والإنساني وهمي كلياً، وما هو إلا التضاد بين الطبيعة الإنسانية بشكل عام والفرد الإنساني، وبالتالي فإن موضوع الدين المسيحي ومحتوياته إنسانية برمتها»³. إذا قلنا أن فيورباخ أعلن عن أفكاره اتجاه المسيحية في كتابه " جوهر المسيحية" هذا لا يعني أن كتبه السابقة لم يضمها أفكاره الإلحادية، وإنما تعتبر مدخل إلى " جوهر المسيحية"، حيث نجده يقدم تعريف لله في كتابه أفكار " حول الموت والأزلية" حيث يقول:«الله هو الحياة، الحب، الوعي، الروح، الطبيعة، الزمان، المكان، كل شيء، في كل من وحدته في

وعى الله، ككينونة مفكرة، أنت موجود في روح الله، ككينونة حية، أنت موجود في الحياة اللانهائية ذاتها، في الزمان، أنت موجود بمعزل عن كل زمان، في المكان، أنت موجود خارج كل مكان. الله أزلي، فقط ذلك الذي هو أزلي يتواجد في الأزلي، ومن أجل فهم الحقيقة والتعبير عنها في الحقيقة وكحقيقة، ليس في التعارض وكتعارض، أنت تتواجد في الله، ونتيجة لذلك مع الأزلية. الله هو الوعي، الحياة، الجوهر، لكنه الحب بوصفه حباً لا متناهياً، أبدياً للكينونة الواعية، بوصفه حباً أبدياً للجوهر ولذلك الذي يعيش بلا نهاية. فما هو أبدي إنما هو فقط موضوع للأبدي⁴، يعتبر هذا الكتاب بمثابة الخطوة التمهيدية الكبرى لكتابه "جوهر المسيحية".

1.1 فيورباخ ونقد الدين:

تعتبر قضية الدين في فلسفة فيورباخ، حجر الزاوية، والنقطة المحورية حيث يقول: «كل أعمالها لها هدف واحد وخط واحد وموضوع واحد هو الدين»⁵، فالنقد الذي قدمه فيورباخ للدين يختلف عن نقد الهيجليين الشباب من اليسار، حيث انتقل من نقد اللاهوت إلى أهم عنصر وهو الإنسان، من خلال الحديث عن ماهية وطبيعة هذا الإنسان، فالدين مجرد اغتراب وتموضع لمهية هذا الإنسان، كما يرفض فيورباخ الفكرة القائلة بأن الدين ضروري للإنسان حيث يقول: «التأكيد بأن الدين فطري وطبيعي بالنسبة للإنسان تأكيد زائف إذا كان الدين يتطابق مع التأليه»⁶.

في كتاب "أفكار حول الموت والأزلية"، ركز فيورباخ كثيراً على نقد رجال الدين ومن يدعي التقوى منهم خصوصاً، فهؤلاء في حقيقة الأمر لا يمثلون المسيحية الحقيقية، بل هم مجرد ادعاء للتقوى والتدين الزائف، فالحديث عن نفي الأزلية في حقيقة الأمر هو سبيل إلى نفي الإله من بعد، وهذا ما سيحتويه "جوهر المسيحية".

إن الحديث عن الإلحاد عند فيورباخ من خلال كتابه "جوهر المسيحية"، لا يمكن أن يتم إلا من خلال المرور من كتاب "أفكار حول الموت"، فهذا الأخير عرض مفصل عن فكرة الحياة الأخروية، أو ما يعرف بالخلود، من المعروف أن الأديان سماوية كانت أو وضعية، تجعل من حياة الروح بعد الموت المحرك الأساسي في نفوس أتباعها،

فالموت بوابة لحياة ثانية، ولكن فيورباخ يجعل من الموت حقيقة ينتهي من خلالها الإنسان، وهذا هدم لاعتقاد المسيحي بالخلود. فلإنسان مجرد حياة واحدة لا غير.

عندما نتحدث عن فلسفة الدين عند فيورباخ، أو القراءة النقدية للدين المسيحي، فنحن نستحضر بالضرورة التأثير الهيجلي في فكر فيورباخ، كيف لا وهذا الأخير يصنف ضمن اليسار الهيجلي، أو الهيجليين الشباب، ولكن تأثير لم يبق حبيس الدائرة الهيجلية، بل سرعان ما يتحول المعلم إلى مادة للنقد في حد ذاته، ويعود هذا النقد إلى كون هيغل ومن خلال محاضراته في فلسفة الدين، أسس لنوع من المواءمة شبه تامة بين فلسفته والمسيحية، وهذا من خلال الأقانيم الثلاثة (الأب، الروح المطلق، الابن)، يقول هيغل: «لا يجب أن يقتصر الدين على العقائد الجامدة ولا يجوز تعلمه من الكتب ولا يجب أن يكون لاهوتياً بل بالأحرى أن يكون قوة حية تزدهر في الحياة الواقعية للشعب، أي في عاداته وتقاليده وأعماله واحتفالاته أن يكون الدين لا أخروياً بل دنيوياً إنسانياً وعليه أن يمجّد الفرح والحياة الأرضية لا الألم والعذاب وجحيم الحياة الأخرى⁷»، يعتبر هيغل الأقنوم الأول عقيدة الدين المطلق، فالأب هو الخالق، وهو السبب الأول للابن وروح القدس على حد سواء، فالأب هو الموجد الحقيقي لكل الموجودات⁸، فאלله عند هيغل هو اللامحدود، والمجرد، والكلي، فهو المبدأ، لهذا يتوجب على هذا المبدأ الأول أن يظهر ويحدد لنفسه مكاناً في العالم حيث «يقوم بإخراج العالم وخلقه من ذاته وهذا التخارج يماثل تخارج الجزئي من الكلي، هذا يدل على أنه لا يمكن أن يصبح الفكر المحض روحاً عينية أو موجوداً لذاته دون الخروج عن ذاته ومباينتها. لذلك يؤكد هيغل أن العالم والله حقيقة واحدة⁹». أما الأقنوم الثاني أو الابن، الذي يمثل ابداع الأب من خلال تجليه في الابن، حيث يكون في نفس الوقت ذاته وغيره، الاب كخالق والمبدأ الأول، والابن كتجلي، أو بتعبير آخر هو الله بذاته ولذاته، وحتى وإن ظهر الله كبشر في الطبيعة فكلاهما جزءاً من الله، ولكن هذا الانفصال عن الله سيمنح طبيعة إلهية، وما موت المسيح إلا انبعاث للروح الإلهية في حقيقة الأمر، فما الموت إلا خلاص من التجسيد البشري وليس الفناء، فالوجود الحقيقي حسب هيغل هو وجوده الكلي، لهذا فالروح خالدة ولا تفتى¹⁰ إن التجلي الذي تمارسه الروح لا يبقى حبيس شخص بعينه، بل سينتقل إلى ما يعرف بالجماعة، فلا تحقق للروح إلا من خلال

الجماعة، وهذا الانتقال هو تعبير عن حقيقة المسيح، وكأن لا وجود للمسيح إلا من خلال الجماعة نفسها، وهذه الجماعة سيحكمها الوعي.

إن الغرض من عرض أفكار هيغل بخصوص الدين وتجلي الروح في العالم، هو رصد المرجعية الصلبة التي انطلق منها فيورباخ في نقده للدين المسيحي، هذا العرض أهمل الإنسان وتركه على هامش الوجود، بل حتى الفلسفة بالمفهوم الهيغلي أقصت الإنسان، فلا يمكن الحديث عن فلسفة أو دين يتجاوز هذا الكائن، فمن غير المعقول أن يكون الدين من أجل اقضاء هذا الموجود، فالدين الذي تدخل فيه رجال اللاهوت، أسس للكثير من الزوايا المظلمة، وهذا ما يحتاج إلى تنوير وإعادة قراءة، لذا يقول فيورباخ: «لقد كان شغلي أن أميز الأماكن المظلمة للدين بمصابيح العلم حتى يمكن للإنسان أن لا يقع فريسة القوى المعادية التي تستفيد من غموض الدين لتقهر الجنس البشري»¹¹، فاستغلال الجهل عن العامة، وتوظيف الدين من أجل السيطرة على العقول المعطلة، لذا يتوجب توظيف العلم من أجل إزالة الغموض وتنوير المجتمعات، فالدين أصبح مجموعات أوهام، وصناعة بشرية انتهائية استغلالية للشعوب.

ما يجب الإشارة إليه، أن فيورباخ ينتقد اللاهوت وليس الدين في حد ذاته، فالتاريخ الطويل لتشكّل اللاهوت افقدت حقيقة الدين، تمظهرات غيبية المسيح الإنسان، وقدمت مسيح تاريخي تشكّل عبر مسيرة التاريخ، وهذا ما افقد الدين جوهره الإنساني من خلال إقامة تخوم بين الإله والإنسان، فحقيقة الدين هي الإنسان، فهو المركز الذي من أجله كان الدين، أما اللاهوت فهو اقضاء للإنسان، «فالدين له مضمون خاص في ذاته، فمعرفة الله هي معرفة الإنسان بذاته، هي المعرفة التي لم تع ذاتها بعد فالدين هو الوعي الأول وغير المباشر للإنسان، أي الوسيلة التي يتخذها الموجود البشري في البحث عن نفسه، يحول الإنسان جوهره من البداية إلى نقطة خارجة عنه قبل أن يعثر على هذا الجوهر داخل ذاته. إن الدين هو سلوك الإنسان تجاه ذاته، هذا السلوك يبدو وكأنه موجه صوب جوهر آخر خارج ذات¹² ه»، فحقيقة الدين تكمن في تحقيق جوهر الإنسان، فالدين ليس غاية بقدر ما هو وسيلة من أجل غاية سامية وهي تحقيق جوهر الإنسانية.

فيورباخ ومن خلال حديثه عن جوهر الإنسانية من خلال فهم جوهر الدين، إنما يؤسس لما يعرف بالدين الإنسان، أو لنقل تلك القطيعة مع هو الإلهي صناعي، أو تحقيق ماهية الدين وحقيقته من خلال تحقق إنسانية الإنسان لذا يرى انجلز (1820-1895) Friedrich Engels أن فيورباخ كان يعمل على الوصل بالدين إلى غاية الكمال¹³، إن الدين الذي يتحدث عنه فيورباخ، هو الدين الذي تجتمع فيه صفات الله والإنسان على حد سواء، الدين الذي لا يقي الإنسان، إنه دين الذي يتحقق الله من خلال الإنسان، وهنا نلمس تلك النزعة الإنسانية التي يركز عليها فيورباخ، إن ميلاد الإنسان المؤله، فالصفات التي يتصف بها الله من محبة وعلم ومعرفة، وقدرة هي الصفات نفسها عند الإنسان، كذلك اللاهائية، والتواجد في كل مكان، إن سر غزارة تحديدات الإله هو في نهاية الأمر سر الجوهر الإنساني¹⁴. يركز فيورباخ على التشابه الكثير بين الإله والإنسان، هذا التشابه هو الذي سيخلق الإنسان المؤله، لذا يقول فيورباخ عن هذا التشابه: «إن علاقة الإنسان بروحهن تعادل علاقة الإله بالعالم المحسوس، فما يستطيع أن يفعله الإنسان في حيز إرادته وخياله وقلبه في لمحة بصر وفي أي مكاناً بعيداً كان أو قريباً هو نفسه ما تستطيع الآلهة أن تفعله في العالم الطبيعي، فالآلهة تجسيد لرغبات الإنسان وإذا تحطمت القيود الطبيعية لقلب الإنسان وإرادته، يصير الإنسان كائناً ذا قوة غير محدودة تعادل قدرته المحسوسة قدرة الإرادة»¹⁵، الإله الذي يقدمه فيورباخ، إله داخل الطبيعة، وليس مفزقاً لها، إله يمتزج مع ما هو إنساني، حيث أن العلاقة بين الإنسان وذاته، هي نفسها بين الله والطبيعة، فالإله المفارق لا يتماشى وغاية الإنسان، ولا يعمل على تحقق إنسانية إنساني، إن التشكل التاريخي للدين نتاج تفسيرات الخيالية والماورائية للإنسان، حيث كان ينسب هذه الحوادث والخوارق إلى قوى مفارقة، أو إلى الإله المفارق، في حين أن هذه الأحداث هي نتاج الإنسان في حد ذاته، لذا فإن «الكائن الروحي الذي يضعه الإنسان فوق الطبيعة، ويعتقد أنه خالقها وموجدتها ليس إلا»¹⁶ ولكن كيف يتحقق كمال الدين، وتظهر الإنسانية؟ هنا يحيلنا فيورباخ إلى السمة الأساسية التي تسكن الوجود برمته، إنها الحب، نعم هذه الغريزة التي نستطيع من خلالها تحقيق جوهر الدين، فالغاية من الدين هو الإنسان، فيورباخ

يؤسس للإنسان العالمي، الإنسان المسكون بالخيرية والقيم السامية. لذا يجب فهم الدين والوعي به، على أنه الإنسان وليس اثبات وجود الإله.

2.1 الله والإنسان عند فيورباخ:

إن المسيحية حسب فيورباخ لم تظهر إلا من أجل الإله وعقيدة التثليث، في حين أن الغاية من الدين هي أبعد بكثير من ذلك، فماذا يقدم وجود الإله من عدمه للإنسان؟، فهذا الأخير هو الأهم لذا يقول فيورباخ: «إن المشكلة اليوم ليست وجود أو عدم وجود الله، إنما وجود الإنسان أو عدم وجوده، ليست المشكلة ما إذا كانت طبيعة الله مشابهة لطبيعتنا ولكن ما إذا كنا نحن البشر متساوين فيما بين أنفسنا. وليس إذا ما كنا نشترك في جسد المسيح باعتبار أننا نأكل الخبز ونشارك في عقيدة "التناول" ولكن إذا ما كان لدينا خبز يكفيننا، ليس ما إذا كنا نعطي ما لله لله، وما لقيصر لقيصر، ولكن إذا ما كنا نعطي للإنسان ما للإنسان، ليس إذا ما كنا مسيحيين أو وثنيين، مؤلهين أو ملحدين، ولكن ما إذا كنا آدميين أو سنصبح كآدميين نتمتع بصحة الروح والبدن والحرية والنشاط والحيوية... إن من يتحدث عني كملحد لا يقول ولا يعرف عني شيئاً... ليست مهمة إنكار وجود الله هي ما يعني ولكن ما يعني هو مشكلة عدم وجود الإنسان»¹⁷، فالغاية من هذه القراءة لمفهوم الدين، ليس اثبات وجود إله أو نفيه، بل الغاية الأسى اثبات وجود الإنسان، هذا الكائن الذي يجب أن نقلق على وجوده ومصيره.

إن التصور الذي يقدمه فيورباخ عن الله، يختلف عن المفهوم الذي يقدمه اللاهوت المسيحي، الله عند فيورباخ تصور فلسفي أنثروبولوجي بالدرجة الأولى، تصور يتعلق بالإنسان من خلال علاقته مع نفسه ومع غيره، ومع وجوده العام، تصور يجعل من الإنسان الغاية والمنتهى من تشكل الدين، لذا يقول: «فالله هو الكائن الذي يحتوي على الكل وكل شيء وغير قابل للتغير ولكنه هو نفسه الشمس التي تشرق على كل الناس والكائنات على الأرض، وهو نفسه السماء التي تحتوي عليها كلها وهو نفسه الأرض التي تحملها كلها»¹⁸، الله عند فيورباخ داخل الطبيعة، إله حل في الطبيعة فتمظهر في العديد من المظاهر، وخاصة الإنسان، كتجلي للإله، فعندما نتحدث عن وعي الإله،

فنحن نتحدث عن وعي الإنسان في حد ذاته، بل حتى فكرة الإنسان في حد ذاتها، هي فكرة عن الله «ما هو الإله بالنسبة للإنسان، فذلك هو روح الإنسان الخاصة، نفس الإنسان الخاصة، ما هو روح الإنسان نفسه، قلبه - هذا هو الإله. الإله مظهر من مظاهر الطبيعة الداخلية للإنسان ذاته المعبر عنها، الدين هو إمالة اللثام المقدسة عن كنوز الإنسان المخفية، المجاهرة بأفكاره الأعمق، الاعتراف العلني بأسرار حبه»¹⁹، إذا كان الإله بهذا الشكل، فمن غير الممكن تصويره أو تحديده في حيز مكاني، فهو من مكونات الطبيعة، ومن الفطرة الإنسانية، ولكن هذا الوجود لا يعني الحضور العملي عند الإنسان، بل يبقى مجرد حضور نظري، أما العملي فيتمثل في وعي الإنسان من خلال اثبات وجوده الشخصي، فغاية الوجود، هو الإنسان.

يرى فيورباخ أن الدين خصوصاً المسيحي لم يكن من أجل اثبات وجود الإله أو نفيه، بل الغاية الحقيقة من ظهور الدين، هي الإنسان، والعمل على تحقيق كونيته لذا يرى فيورباخ أن «الدين، على الأقل الدين المسيحي، هو تعبير عن كيفية ارتباط الانسان بنفسه، أو بشكل صحيح أكثر، بكونيته الجوهرية، لكنه يرتبط بكونيته الجوهرية كما لم أنها كينونة أخرى. الكينونة الإلهية ليست غير كينونة الإنسان نفسه، أو بالأحرى، كينونة الإنسان المجردة من حدود الإنسان الفرد أو الإنسان الحقيقي، المادي، والتي جعلت موضوعية أي، متأملاً بها...من هنا، فإن كل تحديدات الكينونة الإلهية هي تحديدات لكينونة الإنسان»²⁰، فكل حديث عن غير الإنسان، هو مجرد حديث لا طائل منه، فوجود الإنسان هو الكينونة الأصلية، ولا وجود لتضاد بين الكينونة الإلهية والكينونة الإنسانية.

يركز فيورباخ على فكرة الوعي، خصوصاً الوعي الديني من أجل تحقق الكشف عن الحقيقة الأصلية والعليا للطبيعة الإنسانية، فكل وعي زائف سيحجب عنا هذه الحقيقة، حيث أن الوعي الديني سيوصلنا إلى ما يعرف بالإله الذي وضعته الأديان، كائن مقصود بالعبادة، وكأن الدين غايته إرشاد الإنسان إلى هذا الإله الكائن الذي يمثل الكمال الأسعي، في حين أن الغرض الحقيقي هو العمل على تحقيق إنسانية

الإنسانية، فإذا كانت غاية الدين هي تعريفنا وتقريبنا من الله، وهذا في حقيقة الأمر انكار للإنسان.

تقوم المسيحية على فكرة تجسد ابن الله في جسد المسيح، وبما أن الله يكن لعباده الكثير من المحبة ضحى بابنه من أجلهم، وهنا تظهر اهم غيرة وهي الحب، حب الله للإنسان، تضحية أساسها الحب تتوجب على الإنسان عبادة الله، وهنا يتحقق الكمال الإلهي، ولكن فيورباخ يرى أن هذا الادعاء المسيحي مجرد تضليل حيث أن «ماذا يكون المعنى الحقيقي وغير المزيف للتجسيد إلا الحب المطلق الطاهر من دون إضافات ومن دون تمييز بين الحب الإلهي والإنساني؟ بالرغم من وجود الحب النفعي بين البشر إلا أن الحب الإنساني الحقيقي، هو ذاك الذي يدفع نحو التضحية بالذات من أجل الآخر. إذًا، من هو مخلصنا ومنقذنا؟ الله، أو الحب؟ الحب، لأن الله بما هو الله لم ينقذنا بل الحب الذي يتعالى فوق الاختلاف بين الشخصية الإلهية والإنسانية»²¹. هذا الإله المحب الذي ضحى بابنه من أجل خلاص البشرية، مجرد ادعاء حيث أننا لم نجد أثر لهذا الإنسان.

يرى فيورباخ أن الغاية الأساسية من الدين هي الإنسان ولا غير الإنسان، فالقول بأن الحقيقة السامية من الدين هي الايمان بالله، هي في حقيقة الأمر ايمان الانسان بلامائية طبيعته الخاصة، وحرية المطلقة، وهذا القول هو الذي يعيد للإنسان انسانيته ويخلصه من عزلته الدينية، لذا يقول فيورباخ: «قد اخترلنا طبيعة الله السماوية والخرافة للطبيعة وفوق البشرية في عناصر الطبيعة البشرية بوصفها العناصر الأساسية فيها. لقد أوصلتنا عملية التحليل مجدداً إلى النقطة التي انطلقنا منها. إن بداية الدين ووسطه ونهايته هي الإنسان»²² فالإنسان عند فيورباخ هو الميكانيزم الذي يحرك الدين ككل.

يجعل فيورباخ من الإنسان مركز فلسفته، أو إعادة الإنسان إلى دوره الحقيقي، من خلال الحب والوعي، ولا يتأتى هذا إلا من خلال علاقتنا مع الآخر، حيث أنه «من خلال الآخر، امتلك أولاً الوعي بالإنسانية، من خلاله أتعلم وأشعر أولاً بأني إنسان. من خلال حبي لهن يتضح لي أولاً أنه ينتهي إليّ وأني أنتهي إليه، وكأنه لا يمكننا التواجد

منفصلين، وأن الجماعة وحدها تشكل البشرية»²³، يجعل فيورباخ من الإنسان شرطاً أساسياً لظهور الإنسان، فمن خلال الوعي بالآخر، وحب الإنسان للإنسان يمكننا فقط الحديث ما يعرف بالبشرية، فالعزلة والذاتية المفرطة المسكونة بوهم حب الإله تعمل على اغتراب الإنسان أكثر.

الخاتمة:

ختاماً يمكننا القول أن فيورباخ استطاع إعادة للإنسان إنسانيته المسلوبة من طرف اللاهوت، وعلمائه، مع إبقاء على الإله مفارق لا علاقته بهذا الإنسان ولا بالطبيعة، وإن كان فيورباخ لم يصرح بفكرة الإلحاد ونفي الإله، إلا أن فلسفته تقصي هذا الإله ولا تعطيه أي دور في رسم حياة الإنسان وتسييرها، فالغاية الحقيقية من ظهور الدين هو الإنسان وفقط، كما أن الإله ليس كائناً كالإنسان بل هو مجرد فكرة تطورت عبر التاريخ.

فيورباخ ومن خلال فلسفته، عمل على تأليه الإنسان، الذي كان أكثر اغتراباً مع الدين، لذا عمل على تحقيق إنسانية الإنسان في هذا الوجود، وليس العمل على عبادة فكرة الإله، فالغاية الأسمى من ظهور الدين هي الإنسان، كما أنه من غير المعقول الحديث عن فلسفة أو دين لا يجعل من الإنسان حجر الزاوية في الفهم والممارسة، فإذا كان الدين يقصي الإنسان، ويتجاوزه، فما الغاية منه أصلاً، كما لا يمكن إلزام الإنسان بممارسة دينية تتعارض والفهم العقلي والمنطقي، وهذا هو الخطأ الذي وقعت فيه المسيحية، من خلال الحديث عن الفهم المفارق للإنسان، وعليه فإن فيورباخ إنطلاقاً من القراءة النقدية العقلانية لبناء إنسان بعيداً عن أي سلطة دينية كانت.

*** **

الهوامش:

¹ هو لودفيغ أندرياس فيورباخ فيلسوف ألماني ولد في 28 يوليو 1804 في مدينة لاندسهوت بولاية بافاريا الألمانية وتوفي في راينبرغ في 13 سبتمبر 1872. كان تلميذاً لهيغل في بداية دراسته الفلسفية. ليصبح بعد

ذلك من أبرز معارضيه ليدخل ضمن ما يعرف باليسار الهيجلي أو الهيجليين الشباب. كان كتابه «أفكار حول الموت والخلود» الصادر عام 1830 تحت اسم مستعار، سبباً لفصله من الجامعة. انضم إلى الحزب الديمقراطي الاشتراكي قرب نهاية حياته. يعتبر فيورباخ فيلسوف مادي، درس في جامعة إيرلانجين. مؤلفاته الرئيسية هي: «في نقد الفلسفة الهيجلية» (1839) – «جوهر المسيحية» (1841) – «الموضوعات الجارية لإصلاح الفلسفة» (1842) – «أسس فلسفة المستقبل» (1843).

² L.Feuebach, The Essence of Religion, New Yourk, 1873, p 02.

³ L.Feuebach, The Essence of Christianity, Harper Trochbooks New York, 1957, p131-134.

⁴ فيورباخ، أفكار حول الموت والأزلية، دار الرافدين، بيروت، 2017، ص 07.

⁵ Feuerbach, L. Peliminary These on the Reform of Philosophy, p 163

⁶ فيورباخ، أصل الدين، ترجمة عبد الحليم عطية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص 42.

⁷ أحمد عبد الحليم عطية، فلسفة فيورباخ، دار الثقافة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007، ص 153.

⁸ أحسان على، الحيدري، فلسفة الدين في الفكر الغربي، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2013، ص 129.

⁹ نادية أحمد النصراوي، فلسفة فيورباخ بين المادية والإنسانية، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2017، ص 129.

¹⁰ أحسان على، الحيدري، فلسفة الدين في الفكر الغربي، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2013، ص 132.

¹¹ Passeron, J, Philosophie et Religion, PUF Paris, 1881, p 122.

¹² فيورباخ، أصل الدين، ترجمة عبد الحليم عطية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص 10.

¹³ رديك انجلز، فيورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1947، ص 55

¹⁴ فيريه ميشال، الماركسيون والدين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1978، ص 21.

¹⁵ فيورباخ، أصل الدين، مرجع سابق، 1991، ص 78.

¹⁶ المرجع نفسه، ص 92.

¹⁷ عبد الحليم عطية، الإنسان في فلسفة فيورباخ، مجاز للترجمة والنشر، القاهرة، 2019، ص 18.

¹⁸ فيورباخ، جوهر المسيحية، ترجمة جورج بارشين، المحرر، دار الرافدين، لبنان، 2017، ص 48.

¹⁹ المرجع نفسه، ص 69.

²⁰ المرجع نفسه، ص 70.

²¹ L.Feuebach, The Essence of Christianity, Harper Trochbooks New York, 1957, p 53.

²² Ipid, p 184.

²³ Ipid, p 158.